آيات صفات المتواضعين
في القرآن الكريم

دراسة لغوية أسلوبية

أ . م . د. هدى هشام إسماعيل
الجامعة العراقية – كلية التربية للبنات

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

أما بعد فالقرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع، لأنه الكتاب الذي ﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[1]، وهو الكتاب الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[2]، فهو المنهج القويم بفضل ما فيه من مثل عليا تبني العقيدة السليمة في العقول، وتغرس الأخلاق الحميدة في النفوس . فالقرآن الكريم خير كتاب لمعرفة النظم التربوية والإجتماعية.

وهذا سبب إختياري لعنوان بحثي (آيات صفات المتواضعين في القرآن الكريم دراسة لغوية أسلوبية).

وفي هذا البحث المتواضع سنحاول من خلال لغة القرآن الكريم المعجزة التعرف على الأساليب التربوية في بناء صفة التواضع لدى المؤمن والأساليب اللغوية المستعملة في تلك الأساليب التربوية مثل الأمر والنهي إضافة إلى الأساليب البلاغية في صياغة تلك الآيات التربوية المعجزة .

وقد اعتمدت في بحثي هذا على كتب التفاسير واللغة وبعض المصادر القديمة والحديثة .

هذا وقسمت الدراسة فيه على خمسة مطالب فكان المطلب الأول: في مشية المتواضعين

---

(١) سورة هود، من آية ١ .

(٢) سورة فصلت، آية ٤٢ .

وكلامهم أما المطلب الثاني: فكان في النهي عن المشي مرحاً والأمر بالقصد فيه وكان المطلب الثالث: الرحمة وخفض الجناح صفة المتواضعين أما المطلب الرابع فكان عنوانه: المتواضعون أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين وأما المطلب الخامس فكان عنوانه: المتواضعون لا يريدون علواً في الأرض وفسادا فيها .

أما الخاتمة فقد لخصت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها في الدراسة .

وفي الختام أسأل الله سبحانه أن يعصمني من الزلل ويكرمني بنعمة الإخلاص ويهديني سواء السبيل .

المطلب الأول
مشية المتواضعين وكلامهم

التواضع: هو صفة من صفات المؤمنين فهم يعلمون عظمة الخالق ويعلمون أن الكبرياء لا يجوز إلا لله تعالى – بديع السماواتِ والأرض – وقد ذمَّ الله تعالى المتكبرين من خلال آيات تنهى عن التكبر، والنهي: (هو طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء والالزام)[1]، وآيات أخرى تستبدل ذلك الفعل المنهي عنه بفعل يأمر بالتواضع لترشد به من ظل عن السبيل، ولا تبقيه حائراً . فالقرآن الكريم كتاب هداية ورشد والأمر: (هو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والالزام)[2]. أو كما قال يحيى بن حمزة العلوي[3]: (هو صيغة تستدعي الفعل، أو قول ينبئ عن إستدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الإستعلاء). بل نجد في بعض الآيات لغة القرآن الكريم ترسم صورة حية لكلا الطرفين، المتواضعين، والمتكبرين وتصفهم بشكل دقيق لا يخفى على ذوي الألباب وتبين فيها ما يسمى اليوم بلغة الجسد التي تعبر عن مكنونات النفس البشرية من خلال الحركات الجسدية التي فيها عمق وتأثير على الآخرين وهذه اللغة توازي اللغة الناطقة في توضيح الأمور . وهي تعد إحدى الأساليب القرآنية البيانية في إيصال المعلومات والأفكار إلى الآخرين بشكل بليغ و مؤثر .

ونجد ذلك في وصف لغة القرآن الكريم لمشية المتواضعين ففي قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ

(١) البلاغة والتطبيق، ١٢٩ .
(٢) المصدر نفسه، ١٢٣ .
(٣) الطراز، ج٣، ص ٢٨١ .

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾[1]، أما المشي بهذه الطريقة فهي صفة المتواضعين المؤمنين بالله وقوله تعالى: (وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ) مبتدأ وخبره في آخر السورة كأنه قيل وعباد الرحمن الذين هذه صفاتهم أولئك يجزون الغرفة ويجوز أن يكون خبره الذين يمشون وكان قوله تعالى: (أولئك يجزون الغرفة بما صبروا) استأنافا لبيان كونهم أحرياء بما بعد اسم الإشارة . واعلم أنه سبحانه وتعالى خص اسم العبودية بالمنشغلين بالعبودية فدلّ ذلك على أنَّ هذه الصفة أشرف صفات المخلوقات[2].

(وعباد) جمع عبد بمعنى المملوك الذليل الخاضع أو جمع عابد كصاحب والصاحب: بمعنى المطيع والقائم بما يرضي ربه، والأول هنا أظهر[3].

وفي سياق المتقدم لهذه السورة قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾[4]. وهذا يدل على تجاهل المشركين واستنكارهم لاسم الرحمن لذا إضافة العباد للرحمن تخصيص لهم وتفضيل وتقريب وفيه تعريض بأولئك المتجاهلين المتكبرين المبعدين[5].

كما يشعر وصفهم بعباد الرحمن أنهم رحماء فيما بينهم، لا يجافون ولا يتناحرون، بل هم في إطمئنان وسلام وروحانية، لا يجعلون للمادة في حياتهم إلاّ أن تكون غذاء طيباً يأخذون منه القوة للقيام بواجبه، وهم في أوصافهم الظاهرة والباطنة، ولا يستكبرون[6].

وظاهر قوله: (ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا) أنّه مدح لِمشيةٍ بالأرجل وهو الذي عمل

(١) سورة القرقان، آية ٦٣ .
(٢) ينظر التفسير الكبير، ج ٢٤، ص ٩٣ ،وينظر التحرير والتنوير ج١٩ ،ص ٨٧ .
(٣) تفسير إبن باديس، ص ١٩٢ .
(٤) سورة الفرقان، آية ٦٠ .
(٥) ينظر: تفسير إبن باديس، ص ١٩٤، وينظر: في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٥٧٧ .
(٦) زهرة التفاسير، ج ١٠، ص ٥٣١٢ .

عليه جمهور المفسرين . وجوز الزجاج[1] أن يكون قوله (يَمْشُونَ) عبارة عن تصرفاتهم في معاشرة الناس فعُبر عن ذلك بالإنتقال في الأرض وتبعه إبن عطية[2]. فعلى الوجه الأول يكون تقييدُ المشي بأنه على الأرض ليكون في وصفه بالهَوْن ما يقتضي أنهم يمشون كذلك اختياراً وليس ذلك عند المشي في الصعدات أو على الجنادل[3] .

وأما الهون لغةً :

فقد قال الخليل[4]: الهَوْنُ مصدر الهَيّن في معنى السكينة والوقار تقول هو يمشي هونا.. ورجلٌ هَيِّنٌ لَيِّنٌ وفي اللغة هَيّنٌ لينٌ .

وفي اللسان[5]: قال ابن بري الهَوْن الرفق .

فقوله: (عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا) أي بسكينة وتواضع و(هوناً) مصدر وصف به ونصبه إما على أنه حال من فاعل يمشون أو على أنه نعي لمصدر أي يمشون هينين ليني الجانب من غير غضاضة أو مشياً هيناً[6] .

كما نجد في قوله: (ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا) تركيب كنائي أريد معناه: فهم يمشون هينين لينين .. وهذا أصل المعنى وهو المراد، ومراد أيضاً لازمه وهو سهولتهم وتواضعهم ورفقهم في الأمور وبعدهم عن الفساد ومراد لازم آخر أيضاً: وهو سيرهم في هذه الحياة وتصرفهم في جميع الأمور، ومعاملتهم للناس، فإذا كانوا أهل رفق وسهولة في مشيهم في الأرض، فكذلك هم أهل رفق وسهولة في الأمور الأخرى مما ذكرنا، لأن

(١) ينظر معاني القرآن وإعرابه / للزجاج ج ٤ ، ص ٧٤ .
(٢) ينظر زاد المسير ج ٦ ،ص١٠١ .
(٣) ينظر: التحرير والتنوير، ج ١٩، ص ٨٨ .
(٤) ينظر: العين باب الهاء والنون والواو ج ٤، ص ٩٢ .
(٥) ينظر: لسان العرب (هون) ج١٣، ص ٤٣٨ .
(٦) ينظر: إرشاد العقل السليم، ج ٦، ص ٢٢٨ .

الرفق والسهولة خلق فيهم، فكما هو في المشي هو في غيره . وكانت الصلة بالمضارع ليفيد التجدد[1] .

ففي هذه الآية رسمت سمة من سمات عباد الرحمن وهي التواضع لله تعالى وقد عبرت المشية وهي لغة الجسد الصامتة عن شخصية المؤمنين المتواضعين لله تعالى.

فالمشية ككل حركة تعبر عن الشخصية، وعما يسكن فيها من مشاعر. والنفس السوية المطمئنة الجادة القاصدة، تخلع صفاتها هذه على مشية صاحبها، فيمشي مشية سوية مطمئنة جادة قاصدة فيها وقار وسكينة، وفيها قوة وجدة، وليس معنى (يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا) أنهم يمشون متهاونين منكسي الرؤوس، متداعي الأركان، متهاوي البنيان، كما يفهم بعض الناس ممن يدعون إظهار التقوى والصلاح! وهذا رسول الله ﷺ - كان إذا مشى تكفأ تكفيا، وكان أسرع الناس مشية وأحسنها وأسكنها، قال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: ما رأيت أحداً أسرع في مشيه من رسول الله ﷺ - كأنما الأرض تطوى له - وإنا لنجد في أنفسنا وإنه غير مكترث[2]. وقال علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه - كان رسول الله ﷺ - إذا مشى مشى تكفأ تكفيا كأنما ينحط من صبب[3] وقال مرة إذا تقلع[4] - قلت والتقلع الإرتفاع في الأرض بجملته كحال المنحط عن صبب، وهي مشية أولي العزم والهمة والشجاعة[5].

وقرن وصفهم بالتواضع في سمتهم وهو المشي على الأرض هوناً بوصف آخر يناسب

(١) ينظر: تفسير ابن باديس، ص ١٩٤ .
(٢) ينظر مسند أحمد ج١٤ ص ٢٥٨ . رقم الحديث :٨٦٠٤ .
(٣) ينظر سنن الترمذي ج٥، ص ٥٩٨، رقم الحديث: ٣٦٣٧ ،قال الشيخ الألباني: صحيح .
(٤) ينظر المصدر نفسه ج ٥ ،ص ٥٩٩، رقم الحديث: ٣٦٣٨، قال ابو عيسى هذا حديث حسن غريب ليس اسناده متصل.
(٥) ينظر: في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٥٧٧ .

التواضع وكراهية التطاول وهو متاركة الذين يجهلون عليهم بالخطاب بالأذى والشتم وهؤلاء الجاهلون يومئذٍ هم المشركون[1] . قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ وانتصب سلاماً على المفعولية المطلقة، وذكرهم بصفة الجاهلين دون غيرها مما هو أشدُّ مذمة مثل الكافرين لأن هذا الوصف يشعر بأن الخطاب الصادر منهم خطاب جهالة وجفوة[2] .

❊ ❊ ❊

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ج ١٩، ص ٨٩ .
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ج ١٩، ص ٨٩ .

المطلب الثاني
النهي عن المشي مرحاً

وقد استعمل القرن الكيرم اسلوب النهي عن التكبر كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾[1] .

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[2].

يقول ابن عاشور: وكل جملة فيها نهي هي مقتضية شيئاً منهياً عنه وإنما اعتبر ما في المذكورات من معاني النهي لأن الأهم هو الإقلاع عما يقتضيه جميعاً من المفاسد بالصراحة أو بالإلزام، لأن درء المفاسد أهم من جلب المصالح في الإعتبار[3].

وفي قوله تعالى: (وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا) نهي عن خصلة من خصال الجاهلية، وهي خصلة الكبرياء، وكان أهل الجاهلية يتعمدونها، والخطاب لغير معين ليعم كل مخاطب[4] .

فالإنسان حين يخلو قلبه من الشعور بالخالق القاهر فوق عباده تأخذه الخيلاء بما يبلغه من ثراء أو سلطان أو قوة أو جمال. ولو تذكر أن ما به من نعمة فمن الله تعالى، وأنه ضعيف أمام حول الله تعالى، لطامن من كبريائه، وخفف من خيلائه، ومشى على

(١) سورة الإسراء، آية ٣٧ .
(٢) سورة لقمان، آية ١٨ .
(٣) ينظر: التحرير والتنوير، ج ١٤، ج ٨٤ .
(٤) المصدر نفسه، ج ١٤، ٨٣ .

الأرض هوناً[1] .

والمرح: أشد الفرح والنشاط حتى يجاوز قَدرَه .. أي متبختراً مختالاً[2]. والمراد في الآية النهي عن أن يمشي الإنسان مشياً يدل على الكبرياء والعظمة[3] .

وجملة (إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا) إستئناف ناشيء عن النهي بتوجيه خطاب ثانٍ في هذا المعنى على سبيل التهكم، أي أنك أيها الماشي مرحاً لا تخرق بمشيك أديم الأرض، ولا تبلغ بتطاولك في مشيك طول الجبال فماذا يغريك بهذه المشية .

والمقصود من التهكم التشنيع بهذا الفعل. فدل ذلك على أن المنهي عنه حرام لأنه فساد في خلق صاحبه وسوء في النية وإهانة للناس بإظهار الشغوف عليهم وإرهابهم بقوته[4] .

أما في سورة لقمان فنجد سياق الآية المتقدم وهو قوله تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[5] .

وصايا لقمان لإبنه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبعدها جاء قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[6] .

ولما كانت من آفات العبادة لا سيما الأمر والنهي - لتصورهما بصورة الإستعلاء - الإعجاب إلى الكبير، قال محذراً من ذلك معبراً بلازمه، لأن نفي الأعم نفي الأخص،

(١) ينظر: في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٢٢٨ .
(٢) ينظر: لسان العرب (مرح)، ج٢، ص ٥٩١ .
(٣) التفسير الكبير، ج ٢٥، ص ١٣١ .
(٤) ينظر: التحرير والتنوير، ج ١٤، ص ٨٣ .
(٥) سورة لقمان، آية ١٧ .
(٦) سورة لقمان، آية ١٨ .

منبها على أن المطلوب في الأمر والنهي اللين لا الفظاظة والغلظة الحاملان على النفور[1].

وفي قوله تعالى: (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ) انتقل لقمان بابنه إلى الآداب في معاملة الناس فنهاه عن إحتقار الناس وعن التفخر عليهم، وهذا يقتضي أمره بإظهار مساواته مع الناس وعدّ نفسه كواحد منهم[2] .

والصعر لغة: ميل في الوجه وقيل الصعر الميل في الخد خاصة وقيل هو ميل في العُنُق وانقِلاب في الوجه إلى حد الشقين أو هو داء في البعير يأخذه ويلوي عنقه منه ويميله[3].

فكأنه صيغ له صيغة تكلف بمعنى تكلف إظهار الصعر وهو تمثيل للاحتقار لأن مصاعرة الخد هيئة المحتقر المستخف في غالب الأحوال[4]. فالقرآن الكريم يصور لنا لغة جسد المتكبر بتشبيهه بالداء الذي يصيب الإبل ويلوي أعناقها .

والأسلوب القرآني يختار هذا التعبير للتنفير من الحركة المشابهة للصعر. حركة الكبر والإزورار، وإمالة الخد للناس في تعالٍ وإستكبار[5] .

وأشار إلى المقصود بقوله تعالى: (للناس) بلام العلة، أي لا تفعل ذلك لأجل الإمالة عنهم، وذلك لايكون إلاّ تهاوناً بهم من كبر[6] .

وفي قوله تعالى: (وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا) تمثيل كنائي عن النهي عن التكبر والتفاخر لا عن خصوص المشي من حال المرح فيشمل الفخر عليهم بالكلام وغيره . وموقع قوله تعالى (فِي ٱلْأَرْضِ) بعد (وَلَا تَمْشِ) مع أن المشي لا يكون إلا في الأرض وهو الإيماء إلى أن

(١) ينظر: نظم الدرر، ج ٦، ص ٢٠ .
(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ج ١٤، ص ١١٠ .
(٣) ينظر: لسان العرب (صعر)، ج ٤، ص ٤٥٦، تاج العروس (صغر)، ج ١٢، ص ٣١٥ .
(٤) ينظر: التحرير والتنوير، ج ٢١، ص ١١٠ .
(٥) في ظلال القرآن، ج٥، ص ٢٧٩٠ .
(٦) ينظر: نظم الدرر، ج ٦، ص ٢٠ .

المشي في مكان يمشي فيه الناس كلهم قويّهم وضعيفهم، ففي ذلك موعظة للماشي مرحاً أنه مساوٍ لسائر الناس[1] .

وفي قوله تعالى (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ) تعليل للنهي أي ؛لأنَّ الله يكره المتكبر الذي يرى العظمة في نفسه، ويتكبر على عباد الله، المتبختر في مشيته، والفخور الذي يفخر على غيره، ثم لما نهاه عن الخلق الذميم، أمره بالخلق الكريم[2] . فقال: ﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾[3].

والقصد في الشيء خلاف الإفراط وهو ما بين الإسراف والتقتير[4] .

وقوله تعالى: (وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ) القصد في المشي التوسط أي لا تسرع في المشي ؛ فيذهب بهاؤك، ولا تتباطأ، فيبدو خيلاؤك[5] .

وقريء: وأقصد بهمزة القطع أي أسدد في مشيك، من أقصده الرامي إذا سدد سهمه نحو الرمية[6]. ونسبها ابن خالويه للحجاز[7] .

يقول سيد قطب: والقصد هنا من الإقتصاد وعدم الإسراف . وعدم إضاعة الطاقة في التبختر والتثني والاختيال . ومن القصد كذلك. لأن المشية القاصدة إلى الهدف، لا تتلكأ ولا تتخايل ولا تتبختر، إنما تمضي لقصدها في بساطة وإنطلاق[8] .

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ج ٢١، ص ١١٠ .
(٢) ينظر: صفوة التفاسير، ج ٢، ص ٤٩٣ .
(٣) سورة لقمان، آية ١٩ .
(٤) ينظر: لسان العرب (قصد)، ج ٣، ص ٣٥٣ .
(٥) ينظر: أوضح التفاسير، ص ٥٠١ .
(٦) ينظر: لسان العرب (قصد)، ج ٣، ص ٣٥٣ .
(٧) ينظر: البحر المحيط، ج ٧، ص١٨٨ .
(٨) ينظر: في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٧٩٠ .

وعن كلام سيد قطب نجد بيانه إلى لغة الجسد في القرآن الكريم عند المتكبر في مشيه دون كلامه والقرآن الكريم يأمر بالقصد في المشي حتى لا يقع الماشي بين محظورين خطيرين يمكن أن يعبر بها الماشي في مشيه دون كلامه .

أما قوله تعالى (وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ)

الغض لغة: الخفض غض طرفه خفضه . وغض من صوته[1] .

فغض الصوت: جعله دون الجهر. وجيء بـ (من) الدالة على التبعيض لإفادة أنه يغض بعضه، أي بعض جهره، أي ينقص من جُهُوريته ولكنه لا يبلغ به إلى التخافت والإسرار[2] .

وكانت العرب تفخر بمجاهرة الصوت، فنهى الله تعالى عن خلق الجاهلية[3]. كما أن لإنخفاض الصوت وارتفاعه دلالات نفسية تعبر عن شخصية المتحدث (والغض من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته . وما يزعق أو يغلظ في الخطاب إلاّ سيء الأدب، أو شاك في قيمة قوله، أو قيمة شخصه، ويحاول إخفاء هذا الشك بالحدة والغلظة والزعاق[4]) .

وجملة (إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ) تعليل علل به الأمر بالغض من صوته باعتبارها متضمنة تشبيها بليغاً ؛ أي لأن صوت الحمير أنكر الأصوات . ورفع الصوت في الكلام يشبه نهيق الحمير فله حظ من النكارة[5]. وأنه لو كان شيء يهاب لرفع صوته

(١) ينظر: مختار الصحاح (غضض)، ص ٤٧٦ .
(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ج ٢١، ١١١ .
(٣) البحر المديد، ج ٥، ص ٥٦٠ .
(٤) في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٧٩٠ .
(٥) ينظر: التحرير والتنوير، ج ٢١، ص ١١١ – ١١٢ .

لكان الحمار فجعلهم في المثل سواء[1] .

والأسلوب القرآني يرذل هذا الفعل ويقبحه في صورة منفرة محتقرة بشعة .. فيرتسم مشهد مضحك يدعو إلى الهزء و السخرية، مع النفور والبشاعة . ولا يكاد ذو حس يتصور هذا المشهد المضحك من وراء التعبير المبدع، ثم يحاول... شيئاً من صوت هذا الحمير..[2] .

❊ ❊ ❊

(١) البحر المديد، ج ٥، ص ٥٦٠ .

(٢) ينظر: في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٧٩٠ .

المطلب الثالث
الرحمة وخفض الجناح صفة للمتواضعين

من صفات المتواضعين كما ذكر القرآن الكريم خفض الجناح من الرحمة وهذا يشير إلى لغة جسد المتواضعين حين يشبههم القرآن الكريم بالطائر في خفض جناحه رحمة بفراخه وخفض الجناح إلى الأسفل دلالة على التذلل والتواضع عكس رفعه للطيران ومن الآيات التي أشارت إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[3].

وسابدأ بأول آية وهي أمر الله تعالى لرسوله الكريم ﷺ بخفض الجناح للمؤمنين قال تعالى: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4].

ففي قوله تعالى: (وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) أمر الله جل وعلا نبيه في هذه الآية بخفض جناحه للمؤمنين كناية عن لين الجانب والتواضع[5].

و(وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ) معناه لغة نقيض الرفع فالخفض معناه الوضع وجناح الإنسان

(١) سورة الحجر، آية ٨٨ .
(٢) سورة الشعراء، آية ٢١٥ .
(٣) سورة الإسراء، آية ٢٤ .
(٤) سورة الحجر، آية ٨٨ .
(٥) ينظر: أضواء البيان، ج ٢، ص ٣١٦ .

يده قال الليث[1]: يدا الإنسان جناحاه ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ ﴾[2] .. والمقصود أنه تعالى لما نهاه عن الإلتفات إلى أولئك الأغنياء من الكفار أمره بالتواضع للمسلمين[3] .

وخفض الجناح تمثيل للرفق والتواضع بحال الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع خفض جناحه للدنو .. أو الذي يتهيأ لحضن فراخه وفي ضمن هذه التمثيلية إستعارة مكنية، والجناح تخييل .. وقد شاعت هذه التمثيلية حتى صارت كالمثل في التواضع واللين في المعاملة . وضد ذلك رفع الجناح تمثيل للجفاء والشدة[4] .

ولعل سياق الآية المتقدم يبين سبب ذلك الأمر للرسول ﷺ فقوله تعالى: (وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ) نهي عن الحزن عليهم إشفاقاً عليهم (ثم يوجه له الأمر بأن يوجه طاقة الحنان والمودة التي في قلبه إلى من يستحقها، وهم المؤمنون برسالته ﷺ؛ وعليه أن يخفض جناحه للمؤمنين فكل حركة في الإنسان هي نزوع يتحرك به بعد الوجدان، والوجدان يولد طاقة داخلية تُهيء للنزوع وتدفع إليه، فإن حزن الرسول صلى الله عليه وسلم لعدم إيمان صناديد قريش برسالته ؛ فهذا الحزن إنما يأخذ ويخصم من طاقته ؛ فيأتيه الأمر من الحق سبحانه أن يوفر طاقته، وأن يوجهها لمن آمن به، وأن يخفض جناحه لهم . وهكذا يأمر الحق سبحانه رسوله أن يتواضع مع المؤمنين، وأن يتوجه إليهم لا بإستقامة قالبه، بل أن ينزل هذا القالب قليلاً[5] .

---

(١) ينظر: كتاب العين (باب الحاء والجيم والنون)، ج ٣، ص ٨٤ .
(٢) سورة القصص، من آية ٣٢ .
(٣) ينظر: التفسير الكبير، ج ٢، ص ٨٤ .
(٤) ينظر: التحرير والتنوير، ج ١٣، ص ٦٦ .
(٥) ينظر: تفسير الشعراوي، ص ١٨٧٤ .

فأي لغة أجمل من هذا التمثيل للغة جسد المتواضع المنحني حنواً على المؤمنين رحمة بهم يعبر ما في داخل نفس المتواضع بكل حركاته وسكناته لا يهمه إن كان غنياً أو فقيراً؛ بل الرحمة والتواضع هما للمؤمنين لا الكفار والمشركين وهذا توجيه من الله تعالى للتوازن النفسي لكل المؤمنين والتراحم بينهم .

أما في قوله تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[1]. فهو معترض بين الجملتين ابتداراً لكرامة المؤمنين قبل التبرؤ من الذين لا يؤمنون وهو قوله تعالى: ﴿ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾[2]. وبعد الأمر بالإنذار الذي لا يخلو من وقع أليم في النفوس وهو قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [3]. وقوله: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ بيان (لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ) فإنَّ المراد المتابعة في الدين وهي الإيمان[4] .

أما في قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾[5] .

فالخطاب لغير معين فيعم كل مخاطب بقرينة العطف على (أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ)، وليس خطاباً للنبي ﷺ إذ لم يكن له أبوان يومئذٍ . وإيثار ضمير المفرد هنا دون ضمير الجمع لأنه خطاب يختص بمن له أبوان من بين الجماعة المخاطبين بقوله (أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ) فكان الإفراد أنسب به وإن كان الإفراد والجمع سواء في المقصود لأن خطاب غير المعين

(١) سورة الشعراء، آية ٢١٥ .
(٢) سورة الشعراء، آية ٢١٦ .
(٣) سورة الشعراء، آية ٢١٤ .
(٤) ينظر: التحرير والتنوير، ج ١٩، ص ٢٠٦ .
(٥) سورة الإسراء، الآيتان ٢٣ – ٢٤ .

يساوي خطاب الجمع. وخص هذه الحالة بالبيان لأنها مظنة إنتفاء الإحسان بما يلقي الولد من أبيه وأمه من مشقة القيام بشؤونهما[1] .

وذكر القفال في معنى خفض الجناح هنا وجهين :

الأول: أن الطائر إذا أراد ضم فراخه إليه للتربية خفض لها جناحه ،فلذا صار خفض الجناح كناية عن حسن التدبير، فكأنه قال للولد أكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك بك في صغرك .

والثاني: أن الطائر إذا أراد الطيران والإرتفاع نشر جناحه ،وإذا أراد النزول خفض جناحه فصار خفض الجناح كناية عن التواضع وترك الارتفاع وفي إضافة الجناح إلى الذل وجهان :

الأول: أنها كإضافة حاتم إلى الجود في قولك حاتم الجود فالأصل فيه الجناح الذليل.

والثاني: سلوك سبيل الاستعارة كأنه تخيل للذل جناحا ثم أثبت لذلك الجناح خفضاً[2] .

والتعريف في (الرحمة) عوض عن المضاف إليه، أي من رحمتك إياهما. و(من) إبتدائية أي الذل الناشيء عن الرحمة لا عن خوف أو عن المداهنة . والمقصود إعتياد النفس على التخلق بالرحمة بإستحضار وجوب معاملته إياهما بها حتى يصير له خلقاً[3] .

وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ تذكير للإنسان بحال ضعفه وطفولته، وحاجته إلى الرعاية والحنان[4].

---

(١) التحرير والتنوير، ج ١٩، ص ٥٦ .

(٢) ينظر: التفسير الكبير، ج ٢٠، ص ١٥٣، وينظر: فتح القدير، ج ٣، ص ٣١٣ .

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، ج ١٤، ص ٥٧، وينظر: الوسيط لسيد طنطاوي، ج ١، ص ٢٦١٤ .

(٤) ينظر: الوسيط لسيد طنطاوي، ج ١، ٢٦١٤ .

المطلب الرابع
المتواضعون أذلة على المؤمنين
أعزة على الكافرين

هناك صفات للمتواضعين يمكن معرفتها من خلال تعاملنا معهم ومشاهدتهم وهم يتعاملون مع مختلف الأجناس، المؤمنين الصالحين، والفاسقين ،والكفار فنجد تعاملهم يكون بحسب تلك الأجناس من اللين والرفق مرة، والشدة والغلظة مرة أخرى ،

وهذا لا يكون على حسب أهوائهم وأمزجتهم وإنما يتعاملون على وفق ما يملي عليهم دينهم وقلوبهم تبعاً لذلك فهم يحكمون عقولهم قبل قلوبهم ونجد وصفهم هذا في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1] .

والذلة لغة :

قال ابن فارس[2]: الذال واللام في التضعيف والمطابقة أصل واحد يدلُّ على الخُضوع، والإستكانة، واللِّين . فالذُّل: ضد العز . وهو مقابلةٌ في التضادِّ صحيحة، تدلُّ على الحكمة التي خُصت بها العرب دون سائر الأمم؛ لأن العزّ من العزَاز، وهي الأرض الصُّلْبة الشديدة . والذِّل خلاف الصعوبة .. يقال من هذا: دابةٌ ذلولٌ، بيِّن الذُّلِّ .

وفي اللسان: (الذل نقيض العِز ذلَّ يذلُ ذُلاً وذِلَّة وذَلالة ومذلة فهو ذليل بيّن الذُل

(١) سورة المائدة، آية ٥٤ .

(٢) ينظر: مقاييس اللغة (ذل)، ج ٢، ص٣٤٥ .

والمذلةِ من قوم أذلاء وأذلة وذِلال)[1] .

قال الزبيدي[2]: ذَلَّت الدَّابَّةُ بعد شِماسٍ ذُلاً وهي ذَلولٌ: ليست بصعبة جمع ذُلُل بضمتين وأَذلة .

وقد أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنهم إن ارتد بعضهم فإن الله يأتي عوضاً عن ذلك المرتد بقوم من صفاتهم الذل للمؤمنين، والتواضع لهم ولين الجانب، والقسوة والشدة على الكافرين ؛ وهذا من كمال صفات المؤمنين وبهذا أمر الله تعالى نبيه ﷺ، فأمره بلين الجانب للمؤمنين بقوله: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[3] . وأمره بالقسوة على غيرهم بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[4]. [5].

وقيل هو من الذل، من قولهم دابة ذلول بينة الذل أي منقادة سهلة وليس هذا من الهوان وإنما هو من الرفق يعني أنهم متواضعون كقوله: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾[6]. وقرأ ابن مسعود: أذلة على المؤمنين غلظاً على الكفار بنصب على الحال[7] .

وذكر بعض المفسرين أن قوله أذلة على المؤمنين جمع ذليل لا ذلول فإن جمعه ذلل أي

(١) لسان العرب (ذلل)، ج ١١، ص ٢٥٦ .
(٢) ينظر: تاج العروس (ذلل)، ج ٢٩، ص ١٤ .
(٣) سورة الحجر، من آية ٨٨ .
(٤) سورة التوبة، آية ٧٣، وسورة التحريم، آية ٩ .
(٥) ينظر: أضواء البيان، ج ١، ص٤١٥ .
(٦) سورة الفرقان، من آية ٦٣ .
(٧) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن، ص ١٨٤، الكشف والبيان، ج ٤، ص ٧٩ .

أرقاء رحماء متذللين متواضعين لهم[1] .

أما ابن عاشور فيقول: (وفي بعض التفاسير: الذل – بضم الذال – ضد العز – وبكسر الذال – ضد الصعوبة، ولا يعرف لهذه التفرقة سند في اللغة والذليل جمع أذلة)[2] .

ومن خلال كلام ابن عاشور يتبين لنا أنه لا يرى فرقا بين الذُل بضم الذال وذِل بكسر الذال ويرى جمعها أذلة . أما الفرق بينهما بالضم والكسر فقد ذكر الفرق بينهما ابن فارس في معجمه مقاييس اللغة – كما بينا سابقاً – وأما جمعها بـ (أذلة) فقد جاء في اللسان جمع الذُل بضم الذال بـ (أذلة) وقال الزبيدي ذلت الدابة بعد شِماسٍ ذلاً وهي ذلول: ليست بصعبة جمع ذلل بضمتين وأَذلة كما بينا سابقاً ومن هنا يتبين لنا أنه منهم من فرق في المعنى بين الذِل والذُل بالضم والكسر من أصحاب المعاجم أما جمعها على أذلة فقد ورد أيضاً عن أصحاب المعاجم .

وقال صاحب الكشاف[3]، فإن قلت: هلا قلت أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين؟ قلت فيه وجهان :

أحدهما: أن يتضمن الذل معنى الحنو والعطف كأنه قيل عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع .

والثاني: أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم.

وإلى هذا ذهب الزركشي بقوله (وقوله أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين فإنه يقال

(١) ينظر: البحر المحيط، ج ٣، ص ٤١٠، أنوار التنزيل، ج ٢، ص ٣٣٨، روح المعاني، ج ٦، ص ١٦٤، إرشاد العقل السليم، ج ٥، ص ٥١ .

(٢) التحرير والتنوير، ج ٥، ص ١٣٦ .

(٣) ينظر: لكشاف، ج ١، ص ٦٨١ .

ذل له لا عليه ولكنه هنا ضمن معنى التعطف والتحنن)[1] .

وقوله تعالى: (أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ)

العز لغة: ضد الذُّل عَز يَعِزُّ عِزاً بكسر العين فيهما و (عَزازة) بالفتح فهو عزيز أي قوي .. وجمع (العزيز عِزاز) مثل كَرِيم و كِرَام وقومٌ أعزة وأعزاء[2] .

وقوله تعالى: (أَعِزَّةٍ) جمع عزيز وهو المتصف بالعزة بمعنى القوة والإمتناع من أن يغلب أو يقهر ومن قوله تعالى: ﴿ وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾[3]. أي غلبني في الخطاب[4] .

وقال الطيبي: إن قوله تعالى (أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ) جيء للتكميل ؛ لأنه لما وصفهم قبل ذلك بالتذلل، ربما يتوهم أحدهم أنهم أذلاء محقرون في أنفسهم فدفع ذلك الوهم بأنهم مع ذلتهم للمؤمنين أعزة على الكافرين[5] .

وعلل أبو حيان الأندلسي[6] مجيء الأسم (أذلة وأعزة) صفة فيها مبالغة ومجيء الصفة قبل هذا بالفعل في قوله (يحبهم ويحبونه)؛ لأن الإسم يدل على الثبوت، فلما كانت صفة مبالغة، وكانت لا تتجدد بل هي غريزة، جاء الوصف بالإسم، ولما كانت قبل تجدد؛ لأنها عبارة عن أفعال الطاعة والثواب مترتب عليها، جاء الوصف الذي يقتضي التجدد.

وإما إثبات الوصفين المتقابلين فللقوم صناعة عربية بديعة، وهي المسماة الطباق، وبلغاء العرب يغربون بها، وهي عزيزة في كلامهم، وقد جاء كثير منها في القرآن الكريم. وفيه إيماء إلى أن صفاتهم تُسيِّرها آراؤهم الحصيفة فليسوا مندفعين إلى فعل ما إلا عن

(١) البرهان في علوم القرآن، ج ٣، ص ٣٤١ .
(٢) ينظر: مختار الصحاح، ص ٤٢٩ – ٤٣٠ .
(٣) سورة ص، من آية ٢٣ .
(٤) ينظر: تفسير الوسيط، ج ١، ص ١٣٠١ .
(٥) ينظر: التفسير الوسيط ج ١، ص ١٣٠١ .
(٦) ينظر: البحر المحيط، ج ٣، ص ٤١٠ .

بصيرة، وليسوا ممن تنبعث أخلاقه عن سجية واحدة بأن يكون ليناً في كل حال، وهذا هو معنى الخلق الأقوم، وهو الذي يكون في كل حال بما يلائم ذلك الحال[1] .

وما في الذلة للمؤمنين من مذلة ولا مهانة . إنما هي الأخوة، ترفع الحواجز، وتزيل التكلف وتخلط النفس بالنفس، فلا يبقى فيها ما يستعصي وما يحتجر دون الآخرين[2] .

إن حساسية الفرد بذاته متحوصلة متحيزة هي التي تجعله شموساً عصياً شحيحاً على أخيه . فأما حين يخلط نفسه بنفوس العصبة المؤمنة معه، فلن يجد فيها ما يمنعه وما يستعصي به .. وماذا يبقى له في نفسه دونهم وقد إجتمعوا في الله إخواناً ؛ يحبهم ويحبونه، ويشيع هذا الحب العلوي بينهم ويتقاسمونه؟![3] .

(أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ) فيهم على الكافرين شِماس واستعلاء.. ولهذه الخصائص هنا موضع.. إنها ليست العزة للذات ، ولا الإستعلاء للنفس. إنما الإستعلاء للعقيدة، والإستعلاء للراية التي يقفون تحتها في مواجهة الكافرين. إنها الثقة بأن ما معهم هو الخير، وأن دورهم هو أن يطوعوا الآخرين للخير الذي معهم لا أن يطوعوا الآخرين لأنفسهم ولا أن يطوعوا أنفسهم للآخرين وما عند الآخرين ! ثم هي الثقة بغلبة دين الله سبحانه على دين الهوى ؛ وبغلبة قوة الله تعالى على تلك القوى[4] .

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ج٥، ص ١٣٦ .
(٢) ينظر: في ظلال القرآن، ج ٢، ص ٩١٩ .
(٣) ينظر: في ظلال القرآن ج ٢، ص ٩١٩ .
(٤) في ظلال القرآن، ج ٢، ص ٩١٩ .

المطلب الخامس
المتواضعون لا يريدون العلو في الأرض والفساد فيها

من هدي القرآن للتي هي أقوم الحث على التواضع والتحذير من العلو في لأرض والفساد، قال جلَّ واعلا: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1] .

فبعد إنتهاء قصة قارون في سورة القصص ذكرت هذه الآية وأبتديء الكلام بابتداء مشوق وهو اسم الإشارة إلى غير مذكور من قبل ليَسْتَشرِف السامع إلى معرفة المشار إليه فيعقبه بيانه بالإسم المعرف باللام الواقع بياناً أو بدلاً من إسم الإشارة[2] .

وجاءت الإشارة (تلك) بهذه الصيغة المقيدة للبعد للإشعار بعظم هذه الدار وعلو شأنها[3]. وقال البيضاوي الدار صفة والخبر (نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض) غلباً وقهراً ولا فساداً ظلماً على الناس كما أراد فرعون وقارون[4] . وأشار هنا: جعل الله الدار الآخرة للمتواضعين، أهل الذل والإنكسار[5] . ولم يعلق الوعد بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرادتهما وميل القلب إليهما[6] .

---

(١) سورة القصص، آية ٨٣ .
(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ج ٢٠، ص ١١٧ .
(٣) ينظر: تفسير الوسيط، ج ١، ٣٢٩٠ .
(٤) ينظر: أنوار التنزيل، ج ٤، ص ٣٠٥ .
(٥) ينظر: البحر المديد، ج ٥، ٤٤٥ .
(٦) ينظر: الكشاف، ج ٣، ص ٤٣٩، البحر المحيط، ج ٥، ص ٤٤٥، إرشاد العقل السليم، ج ٧، ص ٢٧ .

ولما كان المقصود الأعظم طهارة القلب الذي عنه ينشأ عمل الجوارح قال :لا يريدون ،ولم يقل لا يتعاطون مثلاً تعظيماً للضرر والفساد بالتنفير من كل ما كان منه تسبب، إعلاماً بأن النفوس ميالة إليه ،نزّاعة له فمهما رتعت قريباً منه اقتحمته لا محالة[1] .

وفي تعليق الوعد في الإرادة بقيد عدم القيام في نفوسهم خاطر الإستعلاء بأنفسم لأنفسهم ؛ ولا يجهس في قلوبهم الإعتزاز بأشخاصهم وما يتعلق بها. إنما يتوارى شعورهم بأنفسهم ليملأها الشعور بالله سبحانه، ومنهجه في الحياة. أولئك الذين لا يقيمون لهذه الأرض وأشيائها وأعرافها وقيمها وموازينها حساباً. ولا يبغون فيها كذلك فساداً . أولئك هم الذين جعل الله لهم الدار الآخرة . ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين يخشون الله سبحانه ويتحرون من غضبه ويبتغون رضاه[2] .

❊ ❊ ❊

(١) ينظر: نظم الدرر، ج ٥، ص ٥٢٧ .
(٢) ينظر: في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٧١٤ .

الخاتمـــة

وبعد هذه الدراسة المتواضعة لصفات المتواضعين في القرآن الكريم يمكن أن نجمل بعض الأمور التي توصلنا إليها وكالآتي :

١- تشير لغة القرآن الكريم إلى ما يسمى اليوم بلغة الجسد التي تعبر عن مكنونات النفس من الحركات الجسدية التي فيها عمق وتاثير على الآخرين وهذه اللغة توازي اللغة الناطقة في توضيح الأمور .

٢- يشير وصفهم بعباد الرحمن في قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ الفرقان / ٦٣، بإضافة العباد للرحمن إلى أنهم رحماء فيما بينهم، لا يتجافون، ولا يتنافرون، بل هم في اطمئنان وسلام وروحانية .

٣- في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ الفرقان / ٦٣، تركيب كنائي أريد معناه ولازم معناه، فهم يمشون هينين لينين وهذا أصل المعنى وهو المراد، والمراد أيضاً لازمه، وهو سهولتهم وتواضعهم في الامور، وبعدهم عن الفساد، ومراد لازم آخر، وهو سيرهم في هذه الحياة وتصرفهم في جميع الأمور .

٤- وقرن وصفهم بالتواضع في سمتهم وهو المشي بوصف آخر يناسب التواضع وكراهية التطاول وهو متاركة الذين يجهلون عليهم بالخطاب والأذى يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ الفرقان / ٦٣ .

٥- استعمل القرآن الكريم أسلوب النهي عن التكبر كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ الإسراء/ ٣٧، والمرح: شدة الفرح والنشاط حتى يتجاوز قدره أي متبختراً.

٦- وجه القرآن الكريم خطاباً ثانيا بعد النهي واستعمل فيه أسلوب التهكم فالمقصود

في قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ الإسراء / ٣٧، أي إنك أيها الماشي مرحاً لا تخرق بمشيك أديم الأرض، ولا بتطاولك في مشيك طول الجبال فماذا يغريك بهذه المشية . والمقصود من التهكم التشنيع بهذا الفعل .

٧- في سياق سورة لقمان المتقدم وهو قوله تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ لقمان / ١٧، نجد وصايا لقما لإبنه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبعدها جاء قوله تعالى:﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ لقمان / ١٨، ولما كانت من آفات العبادة لاسيما الأمر والنهي – لتصورهما بصورة الإستعلاء – الإعجاب إلى الكبير، قال محذراً من ذلك معبراً بلازمه لأن نفي الأعم نفي الأخص، منبهاً على أن المطلوب في الأمر والنهي اللين لا الفظاظة والغلظة الحاملان على النفور.

٨- لما نهى لقمان ابنه عن الخلق الذميم في المشي، أمره بالخلق الكريم فقال: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾ لقمان / ١٩، والقصد في الشيء خلاف الإفراط وهو ما بين الإسراف والتقتير. والقصد في المشي التوسط ؛ أي لا تسرع في المشي فيذهب بهاؤك، ولا تتبطأ، فيبدو خيلاؤك .

٩- أمر الله تعالى بغض الصوت في قوله تعالى:﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ لقمان/ ١٩، والغض في الصوت فيه أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته وما يزعق أو يغلظ في الخطاب ؛ إلا سيء الأدب، أو شاك في قيمة قوله، أو قيمة شخصه، ويحاول إخفاء ذلك الشك بالحدة والغلظة والزعاق .

١٠- في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ لقمان / ١٩، تعليل علل به الأمر بالغض من صوته بإعتبارها متضمنة تشبيهاً بليغاً ؛ أي لأن صوت الحمير ورفع

الصوت في الكلام يشبه نهيق الحمير فله حظ من النكارة . وأنه لوكان شيء يهاب لرفع صوته لكان الحمار فجعلهم في المثل سواء .

١١- من صفات المتواضعين كما ذكر القرآن الكريم خفض الجناح من الرحمة وهذا يشير إلى لغة جسد المتواضعين ويشبههم القرآن الكريم بالطائر في خفض جناحه وخفض الجناح إلى الاسفل دلالة على التذلل والتواضع عكس رفعه للطيران .

١٢- قوله تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ الشعراء/ ٢١٥، معترض بين جملتين ابتداراً لكرامة المؤمنين قبل التبرؤ من الذين لا يؤمنون وهو قوله تعالى: ﴿ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ الشعراء / ٢١٦، وبعد الأمر بالانذار الذي لا يخلو من وقع أليم في النفوس وهو قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ الشعراء/ ٢١٤، وقوله: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ بيان ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ ﴾ وأن المراد المتابعة في الدين هي الإيمان.

١٣- في قوله تعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ المائدة / ٥٤، يقال ذل له لا عليه ولكنه هنا ضمن معنى التعطف والتحنن كأنه قيل عاطفين عليهم . على وجه التذلل والتواضع .

١٤- في قوله تعالى: ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ القصص / ٨٣، جاءت الإشارة (تِلۡكَ) بهذه الصيغة المقيدة للبعد للإشعار بعظم هذه الدار وعلو شأنها .

١٥- كما جعل الله تعالى الدار الآخرة للمتواضعين ولم يعلق الوعد بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما .

المصـــادر

- **- القرآن الكريم .**

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم / محمد بن محمد العمادي أبو السعود (ت ٩٥١ هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت .

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن / تأليف: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت ١٢٩٣ هـ)، دار الفكر بيروت – لبنان، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥م .

- أوضح التفاسير / تأليف محمد عبد اللطيف الخطيب، المطبعة المصرية، ط٦، ١٣٨٣هـ – ١٩٤٦م .

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل / تأليف: ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن محمد الشيرازي البيضاوي، دار الفكر، بيروت .

- البحرالمحيط / لأبي حيان الأندلسي الغرناطي (ت ٧٤٥ هـ)، دار الفكر، بيروت – لبنان، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م .

- البحر المديد / تأليف أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي، ط٢، دا رالكتب العلمية ،بيروت، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م .

- البرهان في علوم القرآن / تأليف: محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ .

- البلاغة والتطبيق / تأليف: د. أحمد مطلوب، د. كامل حسين البصير، ط٢، دار الكتب والوثائق ببغداد، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م .

- تاج العروس من جواهر القاموس / للإمام محب الدين محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الملقب بمرتضى، الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ) دار الهداية .

- التبيان في تفسير غريب القرآن / تأليف: شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري، ط١، تحقيق: د. فتحي أنور الدابولي، دار الصحابة للتراث بطنطا - القاهرة، ط١، ١٩٩٢م .

- التحرير والتنوير / تاليف: محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، ٢٠٠٠م .

- تفسير ابن باديس في مجالس التذكير في كلام الحكيم الخبير / للإمام العلاّمة عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي (ت١٣٥٩هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .

- تفسير الشعراوي / للشيخ محمد متولي الشعراوي .

- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب / تأليف: فخر الدين بن عمر التميمي الرازي (ت٦٠٤هـ) دار إحياء التراث العربي - بيروت .

- التفسير الوسيط / تأليف: محمد سيد طنطاوي .

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني / تأليف أبو الفضل محمود الآلوسي (ت ١٢٧٠ هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت . (د.ت) .

- زاد المسير على التفسير/ عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ،ط٣،المكتب الإسلامي بيروت ،١٤٠٤ هـ .

- زهرة التفاسير / تأليف: محمد أبو زهرة، دار الفكرالعربي .

- سنن الترمذي / محمد بن عيسى الترمذي: تحقيق :أحمد محمد شاكر وآخرون ،دار إحياء التراث العربي ،بيروت.

- صفوة التفاسير / محمد علي الصابوني، ط٤، دار القرآن الكريم، بيروت، ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م .

- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز / يحيى بن حمزة العلوي، القاهرة، ١٣٣٢ - ١٩١٤م .

- العين / أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ) تحقيق: مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، دار الهلال للنشر، بغداد ١٩٨١م .

- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق / القاهرة، الطبعة الشرعية الرابعة والثلاثون، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م .

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل، تأليف: أبو القاسم محمود بن عمران الزمخشري، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار التراث العربي - بيروت (د- ط) .

- الكشف والبيان / تأليف: أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، تحقيق الإمام أبي محمد بن عاشور، ط١، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .

- لسان العرب / أبو الفضل جمال الدين بن مكرم بن منظور، (ت٧١١هـ)، دار بيروت للطباعة .

- مختار الصحاح / تأليف: محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي (ت٦٦٦هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، (د- ط)، (د - ت) .

- مسند الإمام أحمد بن حنبل ،تحقيق :شعيب أرناؤوط وآخرون ،ط٢، مؤسسة الرسالة ،١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .

- مقاييس اللغة / لابي الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ)، تحقيق: عبد السلام

محمد هارون، دار الكتب العلمية، إيران – قم .

– نظم الدرر في تناسب الآيات والسور / تأليف: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، ط٢، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م .

❊ ❊ ❊